المصدر: الشرق الاوسط
التاريخ: ١١ ابريل ٢٠٠٣

المشهد في بغداد: سكان يهتفون «النصر.. بوش».. وآخرون خائفون من اقتتال داخلي وفوضى

مسؤول في وزارة الإعلام جمع من الصحافيين 200 ألف دولار كـ«أجور خدمة».. ثم اختفى

العراق: جون دانيجوفسكي*

حينما تقدم جنود مشاة البحرية الاميركية (المارينز) الى وسط بغداد بدأت جمهورية الخوف بالانهيار. العراقيون الذين قضوا حياتهم تحت ظل نظام صدام حسين يخشون حتى من مجرد الهمس في الاذن، بدأوا فجأة ليس بالتكلم فقط وانما بالصراخ عاليا. هتف رجل فرحا كأنه ربح حربا: «النصر».

اصبح الناس في بغداد، الآن، قادرين على قول ما ظل الزوار الاجانب يتحدثون عنه، وهو انهم يكرهون النظام وكانوا يجبرون على قول غير ذلك خوفاً من نظام صدام حسين.

قال اياد ويليام، 30 سنة، المسيحي الذي يعمل في فندق البتراء: «الناس فرحون جدا لزوال نظام صدام»، مذكرا بأن الناس في نفس المنطقة كانوا يهتفون قبل أسابيع قليلة: «نعم، نعم، لصدام». واضاف «كان شيئا خطيرا ومستحيلا ان تقول: يسقط صدام، فقد عشنا 35 سنة تحت حكم حزب البعث، واليوم انا انسان حر واستطيع ان اتكلم واقول: شكرا يا بوش».

هذه الكلمات لم أكن اتوقع يوما سماعها في بغداد، لذلك كان يوم الاربعاء بالنسبة لي يوما مهيبا. «حينما عدت للعراق في مهمة صحافية في يناير (كانون الثاني) الماضي بعد خمسة اعوام عن آخر زيارة لي لهذا البلد انتابني شعور عميق بالفزع، انه نفس الشعور الذي يغمرني كلما اصل الى بغداد: الشعور بأنني اضع نفسي باختياري الشخصي تحت كماشات دولة بوليسية. فما ان اعبر الحدود العراقية من الاردن حتى يتملكني شعور بأنني دخلت سجنا اصبحت ابوابه المفتوحة ورائي».

حاول المراسلون الغربيون دائما هذا ان يتمكنوا من الوصول الى الناس بدون وجود مراقبين حكوميين لسماع شهاداتهم، لكن ذلك كان مستحيلا، اذ كانت الرقابة تجري من خلال مراقبين مخصصين لكل منهم. والسائقون وعمال الفنادق واجهزة الامن، وكل هؤلاء مطلوب منهم ان يكتبوا تقارير يومية عن نشاطات المراسلين الصحافيين. بل حتى اذا تمكن احدهم المراوغة فان العراقيين غالبا ما يكونون تحت رعب عميق يمنعهم من التحدث بصدق.

والحكومة تطالب بدفع اجور لتشغيل هؤلاء المراقبين من الصحافيين انفسهم. فالمدير العام في وزارة الاعلام على سبيل المثال هدد باغلاق شبكات التلفزيون الاجنبية يوم الثلاثاء الماضي ما لم تدفع ما سماه «أجور الخدم»، وتمكن بهذه الطريقة من جمع 200 الف دولار نقدا ثم اختفى على اثر ذلك.

وبدأت يوم الاربعاء التاريخي بمكالمة هاتفية تلقيتها في غرفتي من «مراقبي الخاص» الذي كان خلال الاسابيع الثلاثة الاخيرة يترجم وينفذ القيود الحكومية على حركتي. وكان ايضا اكثر صدقا واقل فسادا من غيره اذ بدأت التقيه كصديق. سألني عبر الهاتف: هل أستطيع ان آتي؟ ثم اخبرني عند وصوله ان كل رجال الشرطة والميليشيات المسلحة قد اختفت من شوارع المدينة، وان عمليات النهب قد بدأت في مدينة صدام، وهي منطقة فقيرة واسعة يسكنها بالدرجة الاولى ابناء الشيعة. وعبر عن خوفه من انتشار الفوضى في كل بغداد. وقال ايضا ان جميع المديرين في مركز الاعلام قد اختفوا. وحينما سألته عن ضيفنا المفترض وزير الاعلام محمد سعيد الصحاف، اكتفى بالضحك.

وفي رواق فندق فلسطين الذي يعتبر المقر العام للمراسلين الأجانب، بدا الصحافيون يظهرون بشكل جنوني، وكان بعضهم في الشوارع لأول مرة بدون وجود مرافقين رسميين معهم، وهناك وجدوا غيابا للقانون والنظام وقام بعض من الغوغاء بمواجهتهم وسرقة الكاميرات منهم. كذلك تمت سرقة كل الاجهزة والمعدات والسيارات الموجودة في مقر الامم المتحدة الواقع شمال شرقي بغداد.

سرت خارج الفندق، فرأيت المدينة اهدأ مما كانت عليه قبل الايام السابقة، اذ لم يكن هناك اطلاق رصاص او سقوط قنابل، وحتى الجو كان اكثر صفاء. اخذت سيارة اجرة، لكن السائق رفض ان يأخذني الى مدينة صدام وبدلا من ذلك فضل ان يأخذني الى منطقة الكرادة التي يسكنها بالدرجة الاولى مسيحيون. قابلت هناك مع بعض الصحافيين الآخرين طابورا من جنود المارينز الاميركيين، الذين وجهوا اسلحتهم باتجاهنا حين تقدمنا نحوهم في الشارع الخالي من المارة. لكن المناخ اصبح اكثر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

استرخاء حين عرفوا هويتنا. وقال رجال المارينز الذين كانوا تحت قيادة العقيد براين ماكوي انهم كانوا ينوون التحرك الى المدنية بحثا عن جيوب مقاومة، لكنهم لم يجدوا أيا منها، لذلك ظلوا يتقدمون وبدت دباباتهم ومدرعاتهم ممتدة الى اقصى ما تستطيع العين ان تراه، وكانت احذيتهم تخفق على الرصيف بوضوح. وكان الهواء مملوءا برائحة دخان الديزل المحترق وصليل اسلحة الدروع اثناء تقدمها في الشوارع.

كانت الضاحية التي تضم عمارات بثلاثة او اربعة طوابق خالية كلها تقريبا، وظهر بعض الرجال والنساء من النوافذ والشرفات وهم يلوحون بمناديل بيضاء، ثم تجرأ بعض الاطفال والكبار على الخروج الى الشوارع بعيون مندهشة لمشاهدة اميركيين مسلحين تسليحا ثقيلا. وحين اصبح واضحا ان جنود المارينز لا ينوون الحاق الاذى بهم، بدأ الناس بالخروج اكثر فاكثر الى الشوارع، ثم بدأوا بمصافحتهم وتقبيلهم.

طلب مني الدكتور فيصل محمد، 50 سنة، ان اقول للمارينز ان سكان منطقة الكرّادة يريدون الحماية. قال لي: «يجب ان يوقفوا علي بابا من نهب كل شيء في المدينة قبل فوات الاوان». لكن ضابط المارينز جوشوا سميث قال ان عليه ان يستمر في الحركة. من جانب آخر كانت عمليات النهب مفهومة بشكل ما، اذ في رأيه عاش كثير من هؤلاء الناس «لفترة طويلة تحت حكم صدام بدون توفر الكثير من اساسيات العيش».

كان بعض السكان يحاولون بشكل واضح ان يعبروا عن امتنانهم بطريقة مصطنعة. شاهدت رجلا ينزع صورة معلقة لصدام وهو يلقي نظرة الى رجال المارينز. بدا مثل الطفل الذي يحاول ارضاء والدته. ذكر هذا المشهد بخاصية تميز بها عراق صدام حسين، والتي يمكن تعريفها بالشكل التالي: لنقم بترديد ما نعتقد انهم يريدون سماعه.

لكن لم يكن الكل مبتهجا بالتحولات السريعة التي وقعت، ففي محل لبيع التبغ تمكن اصحابه من تفريغه قبل ظهور اللصوص، قال رجل اطلق على نفسه اسم ليث: «نحن لا نحب الفوضى وبيتي تعرض للهدم نتيجة للقصف، واميركا جاءت فقط لتأخذ النفط». لكن رفيقا له قال ان «العراقيين يريدون ان يكونوا احرارا» واذا كان الاميركيون قد جاؤوا لاحتلال البلاد فان ذلك سيكون خطأ. لكن «اذا سمحوا لنا ان نعيش في بلدنا مستقلين فهذا هو ما نريده: ان نعيش بسلام وان يكون بلدنا طبيعيا».

قدم طبيب اسنان يعيش في منطقة الكرادة ماء لرجال المارينز، لكنهم اعتذروا بأدب من اخذه. وقال طبيب الاسنان: «لا احد يحب صدام، فالكل كان خائفا منه لانه مجرم. نحن اغنى بلد في العالم العربي لكننا الآن فقراء. لقد قادنا الى حروب كارثية، وفقدنا كل شيء كان عندنا».

وحين سألته امكانية ذكر اسمه في هذا التقرير، رفض قائلا: «ما زلت خائفا جدا». ثم اشار بعلامة النصر ولوّح بيده لأقرب عربة برمائية تابعة للمارينز ثم صاح «النصر، بوش»، ورد عليه بعض جنود المارينز برفع اصابع الابهام اعلى. قال الضابط مارك بلومر: «رؤية هذه المشاهد تجعلني اشعر بالراحة. لا اعتقد انني على استعداد لمبادلة هذه التجربة بالعالم كله».

جاءت الاوامر لطابور المارينز من ماكوي بالتحرك الى الامام باتجاه فندق فلسطين. تمكنت آنذاك من الحصول على سيارة اجرة مع صحافي آخر. حاول السائق ان يجتاز العربات المدرعة التي كانت تتأخر ببطء، فصاح عليه بعض جنود المارينز بالتوقف، لكنه لم يفهم ما طلبوا منه وتحت وطأة الهلع راح يسير بسرعة اكبر. طلبنا منه آنذاك بالعربية ان يتوقف، صوب جنود المارينز رشاشاتهم علينا، لكن راكبا آخر كان يحمل قميصا ابيض بيده راح يصيح عليهم عبر النافذة: «نحن صحافيون». توقف السائق اخيرا ولم يطلق جنود المارينز نيرانهم علينا، وقررت آنذاك ان اترك السيارة واواصل سيرا وراء طابور المارينز.

تجاوزت مجموعة من النساء كن يراقبن الجنود الاميركيين بوجوه عابسة. وقالت تلك المجموعة من النساء انهن يؤيدن صدام حسين واشتكين من سرعة تخلي الجيش العراقي عن المقاومة. قالت نوفات فريد 40 سنة، من الاقلية الارمنية: «الجيش العراقي قوي جدا ويعرف الكثير عن الامور العسكرية، واي واحد يعرف العراق يعرف ان العراقيين شجعان جدا». واضافت هذه المرأة انها تخشى من ان خيانة ما قد وقعت.

ومن كلامها اتضح ان المسيحيين خائفون جدا من ان يضطهدوا على يد الغالبية الشيعية خصوصا من قبل ابناء «مدينة صدام» المغرقة بالفقر. وقالت امرأة لم تذكر الا اسمها الاول «مي» انه «قد تقع حرب بيننا»، وحين سألتها عن السبب، اكتفت بالاجابة: «لانها قد بدأت الآن».

واصلت السير متتبعا خطى الطابور العسكري الاميركي حتى وصوله الى ساحة الفردوس. توقفت حاملات الجنود والدبابات في الشوارع المحيطة بتلك الساحة. كان في وسطها مثال معدني لصدام حسين يتجاوز ارتفاعه 12 متراً. كان عدة مئات من الناس قد وصلوا الى الموقع، وكان تجمعهم في وقت ما بعد الظهر يبدو بهدف اقامة حفل. كان هناك اناس يشاهدون ما يحدث من نوافذ شققهم الواقعة على احد اطراف الساحة. وشعر العراقيون، الذين تحركوا الى المنطقة القريبة من فندقي فلسطين وشيراتون كمكان آمن، انهم لن تُطلق عليهم النيران بسبب وجود الصحافيين هناك. وكذلك انتاب الصحافيين نفس الشعور.

عثرت آنذاك على صديقي ومراقبي السابق في ساحة الفردوس مع تقدم جنود المارينز للمساعدة

www.ethraadl.com

على اسقاط التمثال. لكن الرافعة التي بدأت بسحبه لم تتمكن من اسقاطه في البداية وظل التمثال صامدا. قال لي صديقي عندها: «حتى الآن لا يريد ان يتخلى عن كرسيه». لكن اخيرا سقط، وظل تمثال صدام حتى وصوله الى الارض رافعا يدا موجهة صوب الحشد. قال لي صديقي حينها: «انه يشير الى قبره». راح الحشد يهدر صاخبا مع اقتراب التمثال من الانهيار، حيث اندفع الكثيرون صوبه ليبدأوا بالرقص فوقه. وفي مقهى قريب من تلك الساحة كان هشام محمد جالسا يلعب الدومينو. قال وهو يحرك القطع على الطاولة: «لو سألتني قبل اسبوع لقلت لك انني سأقاتل حتى آخر قطرة من دمي ولن اكون كاذبا. لكنني الآن استطيع ان اقول انني استطيع العيش بدون صدام». فراح اصدقاؤه يضحكون.

لكن رجل الاعمال جرير عبد الكريم، 31 سنة، قال ان على الاميركيين الا ينخدعوا بمشهد سقوط التمثال. وقال بنبرة واثقة: «بعد فترة قصيرة ستبدأ حرب عصابات ضدهم». وتوقع عبد الكريم ان يكون هناك الكثير من الناس في حالة غضب شديد من الاميركيين. وقال: «انظر كم قتلوا من الناس. اليوم شاهدت بعض الناس يكسرون هذا التمثال لكنني شاهدت ايضا رجالا ونساء يصرخون في نفس المكان: اضربوا الاميركيين اضربوا بوش، لذلك مثلما ترى، الوضع ليس بسيطا».

واعترف صديقي الذي رفض كشف اسمه بأن العراق لحقته اهانة كبيرة، لكنه قال: «من جانب آخر انه تحرير لانني استطيع قول ذلك بحرية بل بامكاني ان انتقد الاميركيين اذا اردت، بل استطيع حتى اهانتهم. انهم لا يستطيعون ان يوفروا لنا طعاما لكنهم يستطيعون ان يوفروا لنا حرية التعبير». واضاف هذا الصديق: «لا استطيع ان اصف لك مشاعري لانك تنتمي الى بلد حر». ثم حاول ان يفسر ذلك بكلمات قليلة مرتبكة: «انها اسعد لحظة في حياتي».

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية